نساء الرّمل في "قافلة العطش" لسناء شعلان

بقلم: أحمد مزيد أبو ردن/ الأردن

هذا العالم الذي يتمازج بين الواقع والحلم والأسطورة، وتكون فيه المرأة واسطة العقد، بمشاعرها العارية وبقدرتها على خلق طعم جميل ورائع للحياة، وتلك الأحاسيس المرهفة الدقيقة لذلك الكائن الرقيق الناعم، الذي هو نصف الحياة وسر الإبداع الفني والإنساني، تقدمه نساء شعلان في تجربتها القصصية المتميزة "قافلة العطش"، ويركز على ضرورة الإبداع والقدرة على توصيل الصورة المضخمة بالمشاعر إلى عقل القارئ الذي يدرك مسبقاً أنّه يقرأ لامرأة.

ويريد أن يعرف كيف تكتب المرأة عن عالمها وأسرارها المتوارية التي تلوب وتختفي عن أعين المتعطشين لحديث النساء؟ وإلى معرفة أدق أخبارهن وأسرارهن واختلافهن الروحي والنفسي والبيولوجي عن عالم الرجل الشائك المصطخب العنيف. وحين تغوص في فضاءات التجربة تنفتح أمامك الكثير من الأشياء التي كتبتها وأعطت معان مختلفة في ذهن القارئ المدقق.

قلت لها: اتركيني أقرأ ما تكتبين، أعيش في عوالم القصص التي تنبئ بالكثير من الأسرار عن هذا الكون الإبداعي المعقد، وعن ضجيج الأنثى إلى الحبّ، وارتشاف حلم الحياة الوردي.

ومن أول الطريق يعبر المبدعون، يبوحون بأسرارهم الدفينة، ويكشفون لواعج قلوبهم التي عذبها الانتظار، وهذه امرأة تبوح وتفضح ذلك العالم الذي يسحر عقول الرجال، ويطلق العنان لخيالاتهم المرهقة من التمني والحلم. حين قرأت النص الأول من "قافلة العطش"، كنت ألهث وراء الصور المجنونة في النسيج الإبداعي، ومن السّطر الأول كانت تفضي بقدرتها الهائلة على

البوح، وتتجلّى في عالم السّرد الذي يعطي للقصة مذاقاً رائعاً، ومخزونها من التراث عميق الجذور، لم يقل لي أحد عنه، ولكن بذائقة نقدية تشتم رائحة التراث، اكتشفت الينابيع التي أخرجت هذا الإبداع إلى حيّز الوجود وفرادة التجربة وتميزها ودقة المشاعر التي تنبض وراء الكلمات.

إنّ مجموعة (قافلة العطش) القصصية للكاتبة سناء كامل شعلان تندرج في القص الإبداعي الذي يسحر القارئ، ويجعل من متابعته للحكايات شيئاً ذا قيمة ومتعة، يضيفها جو النّص واللغة العذبة المستخدمة، والوصف الجميل من قلم امرأة تعرف كيف تقدم عالم المرأة بأدق أسراره، وبغرابته، وبقوته وضعفه.

وهذا الجانب الذي عجزت الكثيرات من المبدعات عن تقديمه، من خلال مجال الاعترافات الشخصية، وعالم المرأة الجنسي وتوقها الأبدي إلى نصفها الآخر الرجل، هنا تجربة المرأة المبدعة تختلف كليّاً؛ لأنّها تكشف عن الصورة الحقيقية للأنثى، ولامرأة الصحراء التي لم تقترب أو تقدم مشاعرها الأقلام، المرأة التي تمّ أسرها مع مجموعة من النساء، وجاء أهلهن لدفع الفدية إلى زعيم القبيلة التي اختطفت النساء، ولكن واحدة منهن ترفض أن تعود أو أن تفتدى، وتعترف أنها تحب أسرها، وتطمح إلى الارتباط به.

هذا النّص الذي في المجموعة أماط اللثام عن المرأة الغريبة ومزاجها العجيب، قدمته الكاتبة في أسلوب لا تفهمه غير المرأة بمشاعرها وبقدرتها على الاختيار، حتى لو أنّها أصابت أهلها بالصدمة، وجلبت لهم العار، برفضها العودة إلى أهلها وحسب أعراف قبيلتها التي تعتبر مقدسة في نظر سكان الصحراء الذين يعتبرون المرأة والشرف صنوان يرتبطان بالحياة والوجود، وحين تحدثت عن العطش كان الهدف أكبر من الماء على أهميته في عالم الصحراء، ولكنّه العطش الإنساني ودفء العلاقات بين الرجل والمرأة، وذلك الشعور النفسي الدفين في أعماق

النفس البشرية الذي يوصل إلى الاستقرار والأمان. والقبول بهذا الحد من القدر الذي فرضته إرادة الخالق حينما يكون الإنسان ذكراً كان أو أنثى جنيناً في رحم أمه.

هذا اللامعقول في النّفس البشرية الذي جسدته المرأة الصحراوية حين رفضت أن تعود، وماذا وجدت في ذلك الرجل الذي أسرها؟ ولماذا اختارت أن تعيش معه وقد كان كريماً وشهماً حين قبل الفدية؟ وأمر النساء الأسيرات بالعودة مع أهلهن الذين جاءوا من ديارهم ودفعوا المال ليحافظوا على نسائهم وشرف وعرض قبيلتهم.

هذا الحديث لا يكون همساً وإنّما بصوت عال إيقاعه جميل، وأنفاسه مخضبة بعطر وحناء المرأة التي ترى الحياة من زاوية لا يراها الرجال، وهي تكتب عنهم، وتنثر شوقها الأزلي إلى من يكتب لها كلماته المائية ويحملها محارة مغسولة بالزبد ورغوة البحر الطافية البيضاء.

من أول سطر في "قافلة العطش" كان هناك للحديث معنى تجسده امرأة ملهمة تفصح عن تجربتها بجرأة ونبرة عالية تدخل عالم النساء والجواري والأسيرات وجنيات الكهوف المغلقة منذ ألف عام لتقول لنا: هذا هو عالم المرأة بقوتها وضعفها وكيدها الإنساني الغريزي، الذي تروض به ذلك الآخر المكتنز بالقوة والعضلات وإرادته في اختيار ما يريد دون خوف أو خشية من أحد، وفي العبور إلى فضاءات سناء شعلان العارية مثل فصل خريفي يجرد كل الأشجار من أوراقها، تجرد التجربة من وعثاء الطريق وتنثر أحلامها وحنينها ورؤيتها للحياة.

ليست امرأة عادية ولكنها مع ذلك تحمل كل ارثها الأنثوي، ولهاث أنفاسها المتنامي، وقلق شخوصها وصراع واشتباك لحظات الحدث الذي تلتقطه بكل ذكاء، وتفرشه بمساحات واسعة من الرؤية المتجسدة في إبداع قصصي جميل.

لتقدم عالم الأنثى بكل تعقيداته واشكالياته وخصوصيته، هذا العالم والجانب الأنثوي من حياة النصف الآخر من الحياة البشرية، الذي يراه الرجال ناعماً ورقيقا، ولكنّها تختار الزوايا التي

لا يفهمها الرجال بحكم التكوين العقلي والبيولوجي، وتنفض عنه غبار الاختباء وتقدمه كما تحس به المرأة حين تكتب إبداعها.

إنّها صورة فنية إبداعية خطتها أنامل الكاتبة بكل براعة فلو أنها عادت لم تغادر فضاء القصة العادية والشيء المألوف، أما حين رفضت، وقالت للرجل الذي جعل منها حكاية في متاهات الرمل والسّراب والهجير: إنها عطشى!!

يا لهذه الكلمة الصغيرة من مدلولات هائلة ومعان ربما لا ينقطع الحديث عنها!! ولو كان الكاتب رجلاً لكانت النزعة الذكورية تتطلب منه البطولة والشهامة والعفو عمن لا يملك نفسه أو لديه المقدرة على أن يحرر جسده المكبل، ولكانت النظرة إلى الأنثى على أنها بحاجة إلى الحب والرجل، والى تغيير واقعها وحياتها بارتباطها بهذا الرجل الذي قدم أنموذجا رائعاً في البطولة والرجولة الحقيقية حين عفا عن الأسيرات حتى ولو بمقابل من فدية ومال، ولكن الكاتبة امرأة مكتملة الأنوثة، وتعرف أدق أسرار قلب ونفس الأنثى بفرحها وحزنها وزاوية نظرتها للحياة، ومزاجها المتقلب وأحوالها النفسية المتغيرة والمضطربة والمستقرة.

وهذا ربما لم يعرفه الرجال الذين يحكمون على الأشياء من خلال عالم صلب خشن قاس مليء بالنزعة إلى السيطرة وإثبات القول في العقل وفي الجسم والرغبات.

ثم إن الحديث في قصة قافلة العطش كان عن امرأة من مدائن الرمل المجنونة، التي يلهث في آفاقها سراب الظهيرة الخادع، وتلك اللوحات السوريالية، التي تلوح للعين كأنها بحار من الماء وهي خلب خادعة تتحلب لها أفواه العطشى التائهين الذين يوقعهم حظهم السيء في دائرة مكرها وبردها اللاسع وفي خديعة سرابها المرتحل.